الموسيقى والمجتمع أيام الفاطميين في القاهرة

أ. روزي بيهم[١] (لبنان – فرنسا)

تساعدنا المخطوطات الموسيقية العربية في فهم أحوال الموسيقى والموسيقيين في المجتمعات العربية الماضية. نقترح في هذه المحاضرة النظر في أحوال الموسيقى أيّام الفاطميين في القاهرة (القرن الخامس هجري) من خلال قراءة لمخطوط إبن الطحان "حاوي الفنون وسلوة المحزون" مع مناقشة نقاط معيّنة مثل: فكرة تعريف الشباب على الآلات الموسيقية وتراثهم، ماهية التراث الموسيقي أيام إبن الطحان، تأثير المجتمع آنذاك في تنشيط أو تكسيل نمط موسيقي محدّد. وفي النهاية، هل من الممكن تحديد هوية ثقافية موسيقية واضحة للقرن الخامس هجري؟

لا نعرف الكثير عن الفترة الموسيقية الممتدّة بين القرن الخامس إلى السابع هجري أي بين آخر مخطوط وصل إلينا – حاوي الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان[٢] وفي نفس الفترة كمال آداب الغناء للحسن الكاتب[٣] يتبعهما وينقل عنهما التيفاشي[٤] في متعة الأسماع في علم السماع – ثم توقف الانتاج العلمي الموسيقي بعد أعمال إبن سينا وتلميذه إبن زيلة حتى حلول القرن السابع مع منظرين موسيقيين مثل صفي الدين الأرموي[٥].

---

[١] روزي بيهم (فرنسية-لبنانية)، طالبة في جامعة Westfälische Wilhelms- Universität Münster (ألمانيا) في العلوم الموسيقية تحضّر أطروحة لنيل إجازة الدكتوراه. تهتمّ بالمخطوطات الموسيقية العربية وهي باحثة ناشطة في مركز الأبحاث CERMAA (www.foredofico.org/CERMAA) كما تساهم في تحرير المجلة الموسيقية المتعددة اللغات نيمو-أونلاين (www.nemo-online.org) التابعة لهذا المركز.

[٢] هو أبو الحسن محمد ابن الحسن المعروف بابن الطحان الموسيقي، كنيته أبو الحسين في كتابه ولقبه الموسيقي، بينما لقبه عند ابن سعيد المغربي، الملحّن. لا نعرف سنين ولادته أو وفاته إنّما كان شيخًا ما زال يعلّم الجواري سنة ٤٤٩. كان معاصرًا لابن سينا وابن زيلة وعلى الأرجح تعرّف على أعمالهما في الموسيقى.

[٣] الحسن إبن أحمد إبن علي الكاتب، لا توجد حتى الآن تراجم له أو ذكر لأعماله.

[٤] أحمد بن يوسف التيفاشي (٥٨٠-٦٥١).

[٥] صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الأرموي البغدادي (٦١٣-٦٩٣).

إنّما من المؤكد أن فترة الحكم الفاطمي في مصر كانت من الاوقات العالية في النشاط الفكري والثقافي والحضاري عند العرب، وعلى ذلك تشهد الأبحاث العديدة النابعة من البلاد العربية والغربية.

تَعتبر الأبحاث الجديدة في البلاد العربية (انطلاقًا من زكريا يوسف في السبعينات[٦]، ثم عبد الجليل بن عبد العزيز[٧]) وفي الغرب (لا سيّما كتابات أوين رايت[٨]، إيكهارد نويباوير[٩]) أنّ مخطوط إبن الطحان رائد وفريد من نوعه من حيث المحتوى الذي يقدمه للقارئ وهذا الرأي ما زال سائدًا في أيامنا.

لا شكّ أن هذا المخطوط وصاحبه لهما أهمية في تاريخ الموسيقى العربية، فابن الطحان مذكور من قبل التيفاشي ومخطوطه أيضًا مذكور ومنقول عنه، الأمر الذي نراه غائبًا كليًا عن شخص الحسن الكاتب ومخطوطه. هذه الشهرة الناقصة لا تقلّل أبدًا من أهمية مخطوط الحسن الكاتب. بعض الباحثون يعتبرون أن الكاتب نقل عن إبن الطحان ويدعمون هذه النظرية بوجود الأفكار والجمل والعناوين نفسها أحيانًا عند الاثنين، ونظرًا لغياب الأدلّة التاريخية والتراجم للحسن الكاتب وبما أنّ ابن الطحان ومخطوطه نالا شهرة واسعة منذ أن عرف العالم العربي بوجودهما، أضحى إبن الطحان في الأذهان هو أوّل من كتب ثم أخذ عنه الكاتب في نفس الفترة – بحسب التقديرات التقريبية – ومن بعده يأتي نقل التيفاشي كتأكيد على عدم منازعة إبن الطحان للمركز المُعيّن له، ويغيب الكاتب ومخطوطه كليًا ويُذكَر كناقل[١٠].

بغضّ النظر عن جديّة مسألة من سبق الآخر، يبقى مخطوط "حاوي الفنون وسلوة المحزون" وافر المعلومات عن أحوال الموسيقى والموسيقيين أيام الفاطميين في مصر المذكورين تقريبًا جميعهم في الفصل ٥٥ و٥٦ وممكن تجميع أخبارهم من المخطوط نفسه. كان هذا المغنّي المشهور في خدمة حكّام فاطميين يذكرهم بأسمائهم فكان في بلاط الخليفة الحاكم (٣٨٦-٤١٢) ثم الظاهر (٤١٢-٤٢٧) والمنتصر (٤٢٧) ويذكر أحاديث جرت بينه وبين الأمير صفي الدولة أبو عبد الله محمد بن وزير الوزراء وغيره من الأشراف في البلاط مثل فخر الملك أو صاحب المطابخ أبي أيوب. كل هذه التفاصيل تؤكد

---

[٦] زكريا يوسف، تحقيق أولي لمخطوط حاوي الفنون لمناسبة انعقاد المجمع العربي للموسيقى، بغداد ١٩٧٦ (غير منشور).

[٧] عبد العزيز بن عبد الجليل، مدخل إلى كتاب حاوي الفنون وسلوة المحزون، مهرجان ومؤتمر الموسيقى العربية الثاني عشر، القاهرة، ١-١٠ كانون الأول ٢٠٠٣.

[8] Owen Wright, "Music at the Fatimid court" in *L'Egypte Fatimide, son art et son histoire*, 1998, p. 537-545, Presses de l'Université de Paris-Sorbonne.

[٩] "حاوي الفنون وسلوة المحزون" تأليف ابن الطحّان الموسيقي، يصدره إيكهارد نويباور، ١٩٩٠، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية في إطار جامعة فرانكفورت-ألمانيا الاتحادية يصدرها فؤاد سزكين، سلسلة ج عيون التراث، المجلد ٥٢، طبع بالتصوير عن مخطوطة فنون جميلة ٥٣٩، دار الكتب المصرية – القاهرة.

[١٠] نحاول في بحثنا الحالي ضمن إطار الأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه أن نحدّد إطار تاريخي لحسن الكاتب وأيام كتابته لمخطوطه، وقد وصلنا إلى نظرية ما زلنا نحاول أن نثبتها بواسطة المراجع وما زال من المبكر التحدّث عنها الآن. فيها نفسّر لمَ يغيب الحسن الكاتب عن كتب التراجم وليس له شهرة أو ذكر عند من خلفوه.

للباحث أن المعلومات عن الشخصيات الموسيقية في "حاوي الفنون" تأتي من مؤلف عاشر الناس في البلاط وخارجه ويعرف أحوال الموسيقيين والموسيقى ميدانيًا وما يكتبه في هذا الخصوص هو خبرة حياة.

إبن الطحان ومكانته في مجتمعه

نقرأ في "النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة" لابن سعيد المغربي الأسطر التالية عن إبن الطحان: "[...] شاهدته بمصر عند دخولي إليها في آخر سنة تسع وأربعين وأربعمئة. وكان شيخا جميل البزّة واللّبسة، راكب حمار من الحُمُر المصرية بسرج محلى ثقيل، وبين يديه مملوك. وله تقدم الوزير اليازوري، وكان يعلّم جواريه [...]"[11] ويتبيّن لنا أنّ ابن الطحان كان رجلاً له ثروة ما زال يعيش منها، وما زال يعمل في عمره الكبير – إنّما لا نعرف كم عمره - . نستشفّ أيضًا من هذه الأسطر ومن طريقة التحدّث عنه أنّه رجل محترم في مجتمعه وخبرته لا تزال مطلوبة. أمّا ما نعرفه من مخطوطه، فوجوده غالبًا في حضرة خليفة أو حاكم أو فخر الملك وكان المغنون الباقون يحسدونه لتفضيل الملوك له وللهدايا التي كان ينالها منهم. ربّما بالغ إبن الطحان في هذه الأخبار كي يؤكّد للقارئ صدق فنّه وتميّز مكانته عن باقي المغنين في البلاط.

بعض الأساليب التعليمية عند إبن الطحان

نجد الخبرة التعليمية لابن الطحان ونصائحه متوزّعة طوال المخطوط كما وفي فصل محدّد.

في خصوص موضوع "التحيّل في إدخال الحلوق في الأوتار"[12] ينصح إبن الطحان بالتعلّم في الصغر إذ أن العلم في الكبر لا ينفع. لا تزال هذه النظرة للعلم واقعية جدًا في أيامنا.

في الفصل "في سياسة التعليم والتوصل إليه"، يعرض إبن الطحان الشروط اللازمة الوجود قبل المباشرة بالتعليم، وأكثرها يخصّ المتعلّم:

> "أساسُ التعليم وأصلُه وقوامُه في كلّ صناعةٍ الذكاء وجودة الخاطر ويُقال الطبعُ والشهوةُ ومعرفةُ المتعلّم قدرَ الصّناعة والتمييز وصفاء الذّهن فإنّ هذه الأمورُ إذا كملَت في المتعلّم خفّفت عن الـمُعلّم وأعانَتهُ وكفتهُ مؤونة التعليم"

ثم يؤكّد من خلال قصة صارت مع والده أنّ للمتعلم دور كبير في تسهيل العملية لأنه إذا كان "مطبوع" في الموسيقى والغناء، يكون دور المعلم تذكيري كأن المتعلّم يعرف ما يُلقى عليه إنما نسيه. يتابع إبن الطحان هذا الفصل بنصائح وحيل يمكن للمعلم أن يستعين بها لتشجيع التعلّم فيقول:

---

[11] إبن سعيد المغربي، النجوم الزاهرة في حلى القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠، ص. ٣١٥-٣١٦.
[12] الفصل ٢٤ من الجزء الأول.

"والمُعلّم يحتاج إلى لُطفٍ ورفقٍ وسياسة وحلم وإقامة الهيبة بلا إخراقٍ وترهيبٍ وترغيبٍ وحيلةٍ بالتضريبٍ بين ما يتعلّم من الصبيان ومناضلةٍ يُوقعها بينهم ومخايرةٍ ومسابقةٍ ومُحاماة ومواعيد كاذبة ومجد يشعرهم إيّاه".

والآن لننظر في كيفية استقدام الشباب إلى تعلّم الموسيقى والغناء في أيام إبن الطحان أو ما ينصح به. لنرَ بدايةً من هم الشباب الصالحون للتعليم.

يبدأ الفصل ٧٣ "في اختيار الولايد للتعليم والولدان" بشرط مفاجئ لنظرتنا الحالية لتعليم الموسيقى إذ يعتبر إبن الطحان أن الفراسة وما تتطلّبه من تناسب أعضاء وصورة مقبولة هي أمر لا يُستغنى عن وجوده في المتعلّم. ثم يضيف صفات تتعلّق بالمظهر الخارجي:

"ومحاسنه دقيقة والذكاء ينطق من عينيه ولسانه ولتكن أعضاؤه لينة وأطرافه سبطة ولسانه دقيق ولفظه عذب ومنطقه حلو ونغمته مليحة وثغره كذلك منتظم وفمه صغير وعنقه بارز وألحاظه سريعة وكلامه سالم من اللثغ والتمتمة والرثّة والخنونة والتشدّق والكذب والنميمة".

بالنسبة لابن الطحان، هذه هي المقومات لتأسيس مغنّ جيد والمظهر يلعب دوره في ذاك المجتمع. ومن هنا يمكننا أن نفهم أن ابن الطحان كان يحسن ركوب الخيل وهو جيد البنية وحسن المظهر والمنطق. لكن هل سيقبل تعليم أبناء أغنياء مجتمعه إذا لم يوفوا هذه الشروط، حفاظًا على مكانته الاجتماعية وتجنبًا لالتباسات وفقدان الوظيفة؟

ثم يتابع بخصوص بقية "الولايد والولدان" فيقول:

"وليُحذَر منهم من يكون نظره مفسودًا وخاطره متلبدًا وتصوّره فاسدًا وخلقه سيئًا ونشاطه قليلا وجوابه بطيئًا وعقله مخبولاً فإذا وقع من هو بهذه الصفة فاجمع منهم من شيت وأدخلهم الحمام وأكسوهم ما يستملح وأطعمهم ما يستطاب وطيّبهم بما يستدعي حضور نشاطهم وأسقهم يسيرًا من الخمر بقدر طاقتهم وأحضر لهم من يعمل بساير الآلات وأمرهم بالعمل والمطاولة فمن رأيته يالف صاحب آلة من عود أو زمر أو طبل أو رقص أو معزفة أو رباب فالزمه تلك الآلة والعمل بها والرياضة فيها ونقّله إلى ما سواها ورضه في واحدة واحدة فإنه لا بدّ أن ينجب في واحدة منهنّ أو في الجميع فإن لم ينجب مع هذا التلطّف فاعدل به إلى سوى هذه الصنايع".

هذه النصائح حول تهذيب النفس عبر الموسيقى موجودة منذ كتابات اليونان. نفهم من هذه الأسطر أيضًا قوة تأثير الموسيقى بالنسبة لابن الطحان إذ يمكنها أن تغيّر نفسية الشبان "الغير ملائمين" وممكن

أن يتحوّلوا تدريجيًا ويصبحوا موسيقيين أو ضاربي إيقاع أو مغنّين. وتبيّن لنا هذه الأسطر أيضًا أهمية الصبر في عملية التعليم، وأنّه في اختبار "العيش الهانئ"[١٣] على المعلّم أن يحاول مع كل فرد إمالته نحو الآلات الموسيقية، واحدة تلو الأخرى حتى ينتهي منها جميعها عندئذٍ يمكن أن يجزم في نيّة وقدرة طالب العلم ويقول للشاب أنه يمكنه أم لا يمكنه تعلّم الموسيقى.

□

[١٣] هي تسمية أطلقناها على عملية تحضير الكساء والطعام والحمام والخمر للشبان وإحاطتهم بالراحة الجسدية والنفسية قبل عرض الآلات الموسيقية عليهم.

التراث الموسيقي أيام إبن الطحان ودور المجتمع في تكوينه

كيف يمكننا تحديد التراث الموسيقي أيام الفاطميين في القاهرة والتعريف عنه؟ ربما تساعدنا الأخبار والشكاوى التي كان ابن الطحان يسمعها أو يشتكي منها في رسم صورة "التراث الموسيقي المطلوب" والمحبوب والشائع. إذًا يساهم المجتمع أولاً في تشكيل هذا التراث. ثم إن فكرة التراث متعلّقة مباشرة بالشهرة: شهرة المغني، شهرة اللحن. أمّا شهرة المغني فهي نتيجة عدة عوامل أهمها قدرته على التأليف وحسن أدائه ومعرفته ما يرضي صاحب المجلس وفي هذه المعرفة يتوسّع ابن الطحان مطولاً. شهرة اللحن تأتي من قريحة المؤلف وقدرته على ابتكار اللحن الجديد الذي ينال إعجاب الجميع، فيُنقل من شعر إلى آخر على نفس الوزن وينتشر.

يذكر إبن الطحان بعض المغنين الذين نالوا إعجابه واحترامه، ففي مقدّمة المخطوط يحدّثنا عن ثلاثة أشخاص بارعين: أحمد بن يوسف، اسحق بن ابرهيم الموصلي وعَلَّويَّة وهم من القدماء وقد ولّى زمانهم ثمّ يتحدّث عن مغنّ معاصر له هو الشريف أبو القسم أحمد بن الرسي فيخبر عن سعيه الدائم لتحسين فنّه وللتعلّم مِمّن هو أفضل منه ويبدو جليًا احترامه لهذا الشخص.

أمّا المجتمع، فهو قائم من أناس مختلفين في تقدريهم للموسيقى والغناء والمغنين، حتى العارف في أمور الغناء من بينهم له آراء مختلفة عن مغنّ مثل ابن الطحان. يخبرنا ابن الطحان عن تجربة حديثة في فكرتها قام بها حيث غنّى أمام مجلس "صوت" شعره ركيك ولحنه بسيط قصير ونسبه إلى بعض القدماء ففرح به السامعون وهتفوا له وللقدماء. ثم غنّى "صوت" شعره مبني جيداً ولحنه فيه عمل وانتقالات واجتهد في أدائه ونسبه إلى أحد المعاصرين فلم يهتف له السامعون وعادوا وطالبوه بإعادة اللحن الأول التابع للقدماء. فيقول إبن الطحان في هذا الشأن أن الناس لا يعرفون ما يسمعون ويهتفون للقديم كأنّهم يلحقون عرفًا غير مقول حتى لو كان القديم سيئًا. وهو، إذ يعترف بأن القديم يحوي جودة أكثر من الغناء والألحان الجديدة يبقى عادلاً في نظرته ويعترف بالأصوات الجيدة والألحان الجميلة المعاصرة. هذا الأمر يبيّن انفتاح ذهنيته لكل أنواع الموسيقى وهو أمر مرغوب عند كلّ موسيقي ومغني.

إذًا ما قيمة رأي المجتمع؟ يبقى في النهاية رأيين بحسب فهمنا لعالم ابن الطحان: رأي الملك (الخليفة/الحاكم) وبلاطه وحاشيته "الأغنياء" فإن أعجبهم صوت سيعيده المغني ليكسب رضاهم وهداياهم ولكي يُدعى في المستقبل إلى منازلهم لإحياء مجالس موسيقية وتعليم أولادهم وقيناتهم. أما رأي الشعب فهو المتواجد في المقاهي وفي السوق، يعرفون ما يحبّون ويطلبونه ودور المغني تلبية طلبات الجمهور كي لا يسقط من محبتهم ويُنسَى.

يبقى التراث ما تناقل وما زال يُغنّى ويُعتبر جميلاً حتى أيام ابن الطحان مثلاً المئة صوت المختارة للرشيد وأغاني ابراهيم الموصلي وابراهيم ابن المهدي واسحق الموصلي، هم أكثر الناس ذكرًا ثمّ ابن سريج. وفي الفصل حيث يتناول مسألة مديح المغنين، يذكر الشعر الذي كُتب مدحًا لوالده والشعر الذي كُتب له وذلك إثبات على دوره ودور والده في موسيقى عصرهما. كما ينقل للقارئ ما قيل عن المغنين والمغنيات الماضين من مديح، مثل مخارق وعلّويّة وعاتب.

ومن هذه الملاحظات وغيرها ممّا لم نذكره هنا، يمكن استنتاج أن ابن الطحان ووالده يشكّلان جزءًا أساسيًا من الهوية الموسيقية للقرن الخامس وهو بالإضافة إلى المغنين والموسيقيين الجيّدين مثله والذي لا يذكر عددًا كبيرًا من أسمائهم ولا يمدح إلاّ قليلاً منهم ثم يعود ويهجيهم في مخطوطه تفاديًا لانشغال القارئ بغيره. والهوية تلك تتضمّن ألحان وموسيقى ممّن سبقوا ابن الطحان.

في الختام يبقى مخطوط ابن الطحان وحيدًا في المعلومات التي يقدمها حول المجتمع الموسيقي في عصره وأسماء المغنين ونتمنّى وجود مخطوط آخر منسيّ في مكتبة ما في العالم يضيء أكثر على الحياة الموسيقية في أيام الفاطميين من وجهة نظر موسيقي آخر ونتأمّل أن نجده يومًا ما.